النظري للمعجم دراسة أصل الدلالة الحقيقية نفسها بالنظر في طرق العرف والوضع بالارتجال والتعريب. ذلك هو الجانب النظري للمعجم الموزع بين علم البيان وعلم الصرف وعلم المتن وبحوث فقه اللغة وتاريخ الادب، وقد آن أن يتوحد في علم واحد يسمى « علم المعجم »، ويتخذ بالتالي موضوعا اساسيًا له طرق المعاجم ومادتها ومعناها.

المعجم اذًا، جزء من اللغة ولكنه ليس نظامًا من انظمتها. وهو معين صامت، مستعمل بالقوة لا بالفعل، شأنه في ذلك شأن اللغة نفسها.

أما الناحية الثالثة فهي صعوبة الاستعارة بالنسبة الى وحدات اللغة، والملاحظ في ذلك، أن الاقتراض بين اللغات هو الكلمات المفردة ومكوّنات المعجم. فاللغة العربية، منذ الأمد البعيد، اشتملت على مفردات مستعارة من لغات أخرى، وعلى ذلك أمثلة كثيرة، غير أنها لم تستعر من غير لغتها، لا قاعدة ولا طريقة. ومعنى ذلك كله أن المعجم لا يمكن لهذا السبب أن يوصف بأنه نظام.

واذا لم يكن المعجم، كما رأينا، نظاما من أنظمة اللغة لأنه لا تتوافر له مقومات النظام، فلا بد من أن يكون منهجه متجهًا إلى دراسة « قائمة » من الكلمات تشتمل على جميع ما يستعمله المجتمع اللغوي من مفردات، ونتيجة ذلك فهو يمد اللغة بمادة عملها.